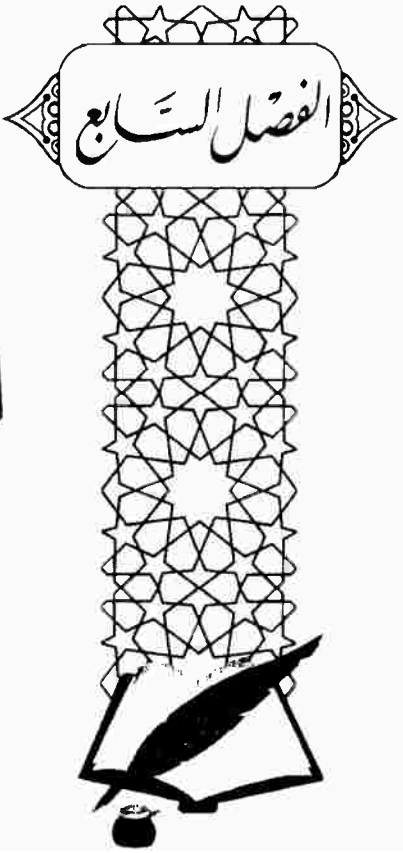

الأجداث والقبور والحُفر والتراب

الفصل السابع

الأجداث والقبور والحُفر والتراب...

إذا كان الله تعالى قد خلق الإنسان منذ آدم عليه السلام، ونزوله وزوجته من الجنة إلى الأرض لتعميرها، وكما نعرف من تراب ثم من طين لازب، فإن الله تعالى قد كتب على بنى الإنسان ومنذ آدم عليه السلام أيضاً أن يموت حينما تخرج منه الروح التى بثها تعالى فيه لحظة الميلاد، أو من قبلها بأشهر قليلة.

ولقد أصبحت حياة الإنسان منذ ذلك الوقت المبكر محصورة بين نفخة في روحه وإخراج هذه الروح من جسده، وحسابها يتم بالأيام والسنين، ومن بعدها يعود الإنسان بجسده إلي الأرض وتصعد روحه إلى السماء، كما جاءت من قبل.

ونهاية حياة الإنسان التى لا يعلمها إلا الله تعالى تبدأ بالاحتضار حين تدنو علامات الموت.. إذ جاءه ذلك الملك الأمين مأموراً من رب العالمين ومن معه من الملائكة من أجل أن يقبضوا تلك الروح التى منحنا إياها ربنا الكريم، ومن بعد ما يصعد هؤلاء الملائكة بما معهم من أمانة أو أمانات.. يتحول الإنسان إلى جسد هامد بلا حراك، ويصبح حينئذ على كل من حوله الإسراع من أجل أن يوارونه التراب خوفاً من الرائحة الكريهة ومن الأمراض.

وعليك منذ هذه اللحظة أن تقول سبحان الله فى خلقه.. لقد كان بين أيدينا منذ ساعات أو لحظات يلعب أو يضحك أو يأكل أو يفعل أى شيء يدل على حيويته!. وها هو قد أصبح جسداً هامداً من الممكن أن يصيبه العفن إذا ما تأخر أصحابه عن دفنه فى التراب وداخل المقابر، وتلك سنة الله فى خلقه منذ آدم وإلى يوم أن تقوم الساعة.

ولولا أن علمنا الله تعالى منذ آدم عليه السلام وحادث مقتل أحد أبنائه، كيف نوارى سوآتنا فورأن، تخرج منها الروح، لظللنا كذلك نعيش وسط روائح كريهة تهدد حياتنا. بل وربما كرهنا تلك الحياة التى جئنا إليها من أجل تعميرها.

وهذه نعمة من الله تعالى رغم ما يصبنا من أحزان حين يفارقنا الأحباب، وتظل تلك النعمة دائمة وملازمة لنا، ولا يعرف قدرها إلا من فقد عزيزاً له ولا يعرف له قبراً.

إذن العبرة لا تتوقف عند حادث الموت والرحيل فقط، بل وتمتد إلى ما بعد ذلك .. حين تظل مرتبطة بالأماكن التى يوجد بها موتانا هنا أو هناك.

والويل كل الويل لأى أحد منا إذ لم يعثر على من فقده، وحوادث البواخر والطائرات كثيرة، وما ينتج عنها من اختفاء أو احتراق أو تآكل الأجساد من دون أن يتعرف عليها الأصحاب والأقارب ! خير شاهد على ذلك وأكثر .

إن أحاديث الموت وما يجب أن نخرج به من مواعظ وعبر كثيرة.. وسبقنا إليها كل أجدادناً منذ أن عرفنا الكتابة أو النقش على الحجارة.

ولسوف تظل هذه الأحاديث على جانب كبير من الأهمية إلى أن تختفى الحياة ومن فيها، كما سيظل الموت مرتبطاً فى الوقت نفسه بأماكن كثيرة نعرف بعضها.. وثم اكتملت تلك المعرفة بعد نزول القرآن الكريم، هذه الأماكن ذاتها.. غير الأماكن التى ارتبط بها الإنسان فى حياته! وهذا يعنى انتقاله من عالم إلى آخر، أو كما يقول رسولنا الكريم إن القبور أول منازل الآخرة!

وإذا ما حاولنا أن نسوق إجمالاً أهم الأماكن التى ترتبط بنهاية حياة الإنسان ورحيله إلى عالم البرزخ أو انتقاله إلى الأعراف، فسوف نكتشف أنها متعددة، وموجودة فى كتاب الله كأماكن مشهورة فى هذا الكتاب العزيز.

ولقد حاولنا حين حصر هذه الأماكن أن نتتبعها وفق ترتيبها بالنسبة لحياة الإنسان نفسه. فنبدأ رحلتنا على سبيل المثال بالحديث عن الأرض، وليس الأرض بمفهومها الواسع ولكن الأرض التى يموت فيها الإنسان.

وأرض الله واسعة ولا يعلم مكان موته من البشر إلا فى حدود بعينها.

ولقد أخبرنا ربنا الكريم بذلك فى قوله تعالى: ﴿ولا تدرى نفس بأى أرض تموت﴾.

ومن بعد حديث الأرض لا بد من الإشارة إلى التراب، وهو ذلك الوعاء الذى تذوب فيه أجسادنا وهى التى أخُذت منه من قبل، ثم الحديث عن المقابر أو القبور، والثرى والأجداث والتابوت والبرزخ والأعرف ثم المرقد، وكلها أماكن ترتبط بشدة برحيل الإنسان ونهاية حياته فوق الأرض التى كان يعيش عليها منذ لحظات. وتلك سُنة الله فى خلقه فتعالوا إلى التفاصيل.

** الأرض .. أول مكان إحتضن الأنسان ميتاً:

كما نعرف جميعاً ومن خلال ما أنبأنا به ا لقرآن الكريم أن الله تعالى قد خلق البشر بعد خلقه لكل من السموات والأرض، وأنه تعالى قد هيأ الحياة الطيبة على هذه الأرض من أجل أن يعمرها الإنسان بعد نزول أبيه آدم إليها مصاحباً زوجته.

ومن حكمة رب العالمين أن جعل خلق الإنسان نفسه من عناصر هذه الأرض . حيث يظل مرتبطاً بها طوال حياته.. بل وأكثر من ذلك فإن حكمة الله تعالى قد جعلت هذه الأرض أيضاً هى نفسها ذلك الوعاء الذى يذوب فيه الإنسان من بعد موته، وبالتالى تعود عناصر الأرض التى تكون منها جسم الإنسان إلى هذه الأرض مرة أخره ولكن بعد فترة حياة يحددها رب العالمين لعباده مسبقاً.

وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق أن اختيارنا للأرض كأول مكان مشهور جاء ذكره في كتاب الله ومرتبطاً بموت الإنسان.. إنما جاء وفق ما أشار إليه القرآن الكريم نفسه، رغم أن لفظ الأرض على عموميته قد جاء ذكره في كتاب الله ليشير إلى أكثر من معنى ومكان مرتبط بهذه الأرض.

إذن الأرض بمفهومها الضيق والذى يعنى فقط المكان الذى يدفن فيه الإنسان هو ما قصدنا إليه من اختيارنا للأرض كمقر دائم له من وفاته ، وبالتالى فإن الأرض بهذا المعنى تعتبر أول مقبرة للإنسان تحتويه وجسده بعدما يذوب ويبقى فيها حتى يوم القيامة.

وبخلاف ذلك، فإن الله تعالى قد ذكر لنا الأرض بمفهومها الواسع و الضيق فى أكثر من آية وسورة كريمة، وبالرجوع إلى المعجم المفهرس والذى خصصه مؤلفه محمد فؤاد عبد الباقى لبيان ألفاظ القرآن الكريم، وما قيل بشأن الأرض فى سور القرآن الكريم وآياته.. اكتشفنا أن الله تعالى وفى كتابه العزيز قد ذكر لنا لفظ الأرض بمفهومها الواسع فى أكثر من ٤٠٠ آية كريمة، أما فيما يخص مفهومها الضيق والمرتبط بمكان وفاة البشر أو رحيل الإنسان فقد جاء ذكرها فى سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ الآية (٤٢)،كما جاء ذكرها أيضاً فى هذا السياق فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الآية (٤٤) فى سورة ق، وفى قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية (١٠٦). وفى قوله تعالى فى سورة النمل الآية (٨٧): ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾، وكذلك فى قوله تعالى فى سورة الروم الآية (٢٥) :﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

أما من أعظم آيات الله البينات والتى ارتبطت مباشرة بموت الإنسان فى الأرض باعتبارها مكان عام.. فقد جاء فى سورة لقمان الآية (٣٤) فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

ولو تدبرنا الآيات السابقة فيما يخص مكان إقامة الإنسان ورحيله أيضاً نستطيع أن نقول : إن الله تعالى قد خلق الإنسان كما نعلم وأطلقه وأهله فى الأرض الواسعة التى يختار منها ما يناسبه وأهله وعشيرته وقبيلته ثم قومه أو وطنه، ويظل يعيش فوق هذه الأرض التى عاش بها من قبل أجداده، انتظاراً ليوم الرحيل.. والذى قد يأتيه وهو غير مقيم فوق قطعة الأرض التى اختارها، وبالتالى يدفن فى مكان أو فى أرض أخرى لا يعرفها وربما كان يعرف عنها بعض الشىء.

ليس هذا فقط، بل إن الله تعالى يخبرنا ومن خلال آياته الكريمة أن جميع الذين يعيشون فوق هذه الأرض باختلاف جغرافيتها سوف يموتون أيضاً ويدفنون ببطنها

ويظلون على حالتهم هذه إلى أن يشاء الله وحتى ما ينفخ فى الصور، فيخرج الناس من باطن هذه الأرض من أجل الحساب يوم القيامة ، عندئذ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، استعداداً لبدء مرحلة جديدة فى حياة هذا الكون وحياة الإنسان أيضاً.

هذه اخبر لتى تدور فى فلك الجنة والنار، ولكل أصحاب يعرفونها.

وانتظار الإنسان فى باطن الأرض ربما يطول ليصل إلى مئات أو آلاف السنين.. لأنه حين يدخل بباطنها لن يخرج منها إلا يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ولقد حدثنا العشرات من علماء الطبيعة وكذلك علماء الدين عن حكمة عودة الإنسان بجسده إلى الأرض التى خلق منها، وكيف علمنا رب العالمين بحكمته وقدرته كيف ندخل أحباءنا فى باطن الأرض ، وأهمية ذلك لنا ولغيرنا، لأننا لو تركناهم بدون أن ينزلوا إلى باطن هذه الأرض فسوف تعم الأمراض وتنتشر بل وربما نأنف فى الأصل من هؤلاء الأحباب الذين ملأوا الدنيا حولنا صخباً وحباً وحزناً وحياة، وكانت تلك من أعظم نعم الله تعالى علينا.

ولسوف تستمر إلى يوم تقوم الساعة. وكما نعرف فإن الفضل فى ذلك يعود إلى ذلك الطائر الذى قتل زميله وأخذ يدفنه فى باطن الأرض.

** التراب.. عندما نزل إليه رغما عنا..

لو أخذنا نتبع بصدق طريق الإنسان إلى باطن الأرض بعدما علمنا ربنا ذلك على يد ذلك الطائر الذى قتل زميله، عندما فشل أحد أبناء آدم عليه السلام فى التصرف فى جثمان أخيه الذى قتله نكتشف أن الله قد هيأ هذا الغراب من أجل أن يقوم بهذه المهمة لخدمة بنى البشر ومنذ ذلك التاريخ وحتى قيام الساعة، وكانت مهمة هذا الطائر هو النبش فى تراب الأرض وحفرها من أجل أن يجد مكاناً للذى قتله!! وعندما واراه هذه الأرض، رمى فوقه حفنة من التراب كى يختفى عن أنظار الحيوانات الجارحة التى كانت من الممكن التقاط هذا الطائر الميت بين فكيها، ويكون بذلك صيداً ثميناً.

عندئذ تعلم أحد أبناء آدم عليه السلام هذه المهمة، وبالتالى فنراه هو الآخر قد لجأ إلى التراب الذى أخذ ينبشه بيديه حتى وجد مكاناً يستوعب جسد أخيه الذى قتله وذلك فى باطن الأرض، ووسط هذا التراب، بل وأخذ بعد ذلك يهيل عليه تراباً آخر من فوق سطح الأرض حتى واراه عن الأعين واختفى فى باطن الأرض، خوفاً أيضاً مما قد يتعرض له من مخاطر وهو جسد بلا حراك، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شراً ولا ضراً.

فانظروا إلى آثار رحمة الله تعالى الذى جعل لنا من التراب ستراً وحماية لأجسادنا بعد ما نموت!!، ولولاه لتحولنا إلى جيفة نتنة ولأخذنا نهرب منها هنا وهناك.

وكما سبق وذكرنا فإن الله تعالى قد جعل آخرتنا فى التراب الذى جئنا منه أول مرة، كما أخبرنا تعالى بأننا خلقنا من هذا التراب، عندئذ أخذ العديد من العلماء فى تحليل تلك الأتربة لاستخراج ما بها من عناصر من أجل معرفة صلتها بجسم الإنسان، واكتشفوا فى هذا السياق أن هذه العناصر هى بالضبط التى يتكون منها جسد كل منا مع اختلاف مقدارها من جسد لآخر.

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن خلق الإنسان من تراب فى العديد من آياته ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف الآية (٣٧): ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾. كما حدثنا كذلك عن تحول الإنسان مرة أخرى وعودته إلى ذلك التراب وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الآية (٥) فى سورة الرعد، كما جاء نفس المعنى فى آيات وسور أخرى مثل قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾. الآية (٣٥) فى سورة المؤمنون، ثم فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ الآية (٦٧) فى سورة النمل.

وهكذا وجدنا أن ما فى القرآن الكريم من الآيات والسور الخاصة بذكر التراب كمكان مرتبط بالإنسان ، سواء بخلقه الأول أو بعودته إليه من جديد يبلغ خمس عشرة آية كريمة فى ثلاث عشرة سورة كريمة هى: آل عمران الآية (٥٩)، و(٣٧)

الكهف و(٥) الحج و(٢٠) الروم و(١١) فاطر و(٦٧) غافر و(٥) الرعد و(٣٥) و(٨٢) المؤمنون و(٦٧) النمل و(١٦) و(٥٣) الصافات و(٣) ق و(٤٧) الواقعة و(٤٠) النبأ.

هذه الآيات والسور كما ذكرنا بها حديث عظيم عن نشأة التراب وخلق الإنسان وفيه أيضاً شأن آخر خاص بموته.

ومن الآيات والسور المرتبطة بالخلق والتراب الآيات: (٥٩) آل عمران (٢٧) الكهف و(٥) الحج و(٢٠) الروم و(١١) فاطر و(٦٧) غافر . أما آيات وسور ارتباط التراب بالموت والرحيل فهى (٥) الرعد و (٣٥) و(٨٢) المؤمنون و(٦٧) النمل و(١٦) و(٥٣) الصافات و(٣) ق و(٤٧) الواقعة و(٤٠) النبأ.

معنى ذلك أن الله تعالى قد ذكر لنا خلق الإنسان من التراب فى ست آيات وجاءت فى ست سور كريمة.. فى حين ذكر لنا ربنا العظيم آيات ارتباط التراب بموته فى تسع آيات كريمات جاءت كلها فى سبع سور كريمة.

ولمن يريد أن يتفكر فى هذا الأمر فعليه بقراءة هذه الآيات وتدبر معانيها كى يصل إلى ما يريده من أهداف وما يرمى إليه من معانٍ.

** الحُفرة.. المرحلة الثانية فى باطن الأرض:

وفق تطور كل شىء فى حياة بنى آدم، فقد تطورت كذلك أماكن وجوده داخل باطن الأرض، ويبدو أن وظيفة المقابر لم تبدأ وفق معناها ووظيفتها الحالية إلا بعد أن مرت بمراحل كثيرة بدأت بالتراب ثم بالحُفر ، ومن بعدها المقبرة أو المقابر أو القبور.

ليس ذلك فقط، بل إن مسميات المقابر تختلف كذلك من لغة إلى أخرى كما أختلفت من مكان إلى مكان وكما اختلفت كذلك على مر الأزمنة والعصور.

وتعالوا سوياً نتبع هذا التطور منذ أن عرف الإنسان كيف يوارى سوأة أخيه، وكيف تعلم بنى الإنسان، من الطير هذه المهنة التى كان يجهلها، هذا التعلم الذى بدأ منذ حادث قتل أحد أبناء آدم عليه السلام.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم هذه القصة من أجل أن نعتبر ونتعلم، وذلك فى قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

والمعنى معروف ومفهوم ويدل دلالة واضحة على أن الإنسان كان لا يعلم كيف يدفن القتيل، فبعث الله تعالى أحد الطيور وهو الغراب من أجل أن يتمم هذه المهمة ويتعلم من خلالها الإنسان طريقة دفن الموتى!، وبذلك نستطيع أن نقول إن ذلك الغراب كان أول مخلوق يحفر حفرة فى الأرض من أجل هذا الغرض ومن بعده صارت سُنة لله فى أرضه وفى خلقه بعدما تعلمها بنى آدم.

ومنذ ذلك التوقيت الذى نجهله حيث ارتبط بنزول آدم عليه السلام وبدأ معيشته على هذه الأرض، بدأ العصر الذهبى وكما يقولون لعمل الحفُر، والتى تطورت على مر الأزمنة إلى المقبرة أو المقابر بأشكالها وأحجامها المختلفة والمتغيرة عبر التاريخ وداخل كل المجتمعات.

وعن هذا المعنى ذاته يقول الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره لبعض كلمات الآية السابقة.. أن قابيل حين أقدم على قتل أخيه ، ورأى جثته أمامه ملقاة بالعراء، تحير ماذا يفعل!! فأرسل الله تعالى غراباً يحفر وينبش فى الأرض بمنقاره ورجليه ليعلم ذلك القاتل كيف يستر فى التراب جسد أخيه بعدما فارق الحياة وأصبح عرضة للتغير والتعفن وفريسة للحيوانات والطيور.

وهنا شعر قابيل بالتحسر والندم وقال يا فضيحتى ومعيبتى، أضعفت حيلتى عن أكون مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى الترا ب وفى الحفرة!.[1]

ولا بد أن نشير فى هذا السياق إلى أننا لاحظنا وجود نوع من التلازم والارتباط بين كل من الأرض والتراب والحفر فيما يخص مصير الإنسان بعد وفاته.

(١) القصة فى القرآن - ج (١) مصدر سابق.

ومن غريب الأمر أن لكل من هذه الأماكن رغم ارتباطها بعضها البعض. وظيفة مغايرة للأخرى، فالأرض هى ذلك المكان الذى يختاره رب العالمين كى يموت فيه الإنسان.. وسبق أن أوضحنا أنه يعنى المكان. ثم التراب وهو الغطاء الذى نستخدمه من أجل أن يستر جسد الميت.. وأخيراً الحفرة التى هى ذلك الوعاء الذى ينزل به الجسد بعد إجراءات دفنه.

وسبحان الله تعالى الذى جعلنا ترتبط فى حياتنا وفى مماتنا بالأرض والتراب وبالحُفر أيضاً!!.

وعندما نتوجه إلى لغتنا العربية لنقف على معنى كلمة الحفرة ومغزاها من قبل أن نتوقف أمام صفحات كتاب الله لنفس الغرض .. نكتشف أن معنى الحفرة أنها هى جزء من الأرض نزع ترابه فانخفض، ونضيف إلى ذلك القول: بأن الحفرة يختلف عمقها وفق استخداماتها، وفى بداية معرفة الإنسان بأصول دفن الموتى، لم يكن هناك تحديد لعمق هذه الحفرة، اللهم أن تستوعب ذلك الجسد ويتم تغطيها بالتراب ثم بالحجارة فيما بعد.. درأ لنبش الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة.

ولا يزال هذا التقليد قائم إلى اليوم مع تحديد دقيق لعمق هذه الحفرة ومساحتها من حيث الضيق أو الاتساع!

وعندما نقف أمام صفحات كتاب الله لنعرف موقع الحفرة كمكان مشهور ارتبطت بنهاية حياة الإنسان سوف نكتشف كذلك أن الله تعالى قد ذكر هذه الحفرة فى موضع واحد فقط وفى الآية (٣) فى سورة آل عمران وفى قوله تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

ومن عجيب هذا الكتاب العظيم أن الله تعالى لم يذكر لنا الحفرة مرتبطة بموت الإنسان، وذلك بعدما أوضح لنا هذه المهمة وتفاصيلها في سورة المائدة عند الحديث عن أول جريمة فى تاريخ البشرية.

** الثرى.. الذى نرقد تحته إلى حين:

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ الآية (٦) فى سورة طه. والمتمعن فى هذه الآية وحال الوقوف عند كلماتها وألفاظها ،لا بد له وأن يتذكر أيضاً الموت وأماكنه، ذلك لأن الله تعالى قد أخبرنا فى هذه الآية أن الله تعالى هو مالك الملك كله.. وله ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات نراها ولا نراها، وكذلك ما تحت الثرى ومنها الثروات الطبيعية التى يحويها باطن الأرض وكذلك أجسادنا التى تبلى ويبقى منها بعض آثارها.

والثرى فى اللغة معناه: التراب الندى.

وفى تصورنا أن الله تعالى قد جعل هذا التراب الندى هو المتكأ الذى ينام فوقه جسد الإنسان حتى ولو إلى حين، وذلك حتى يبلى ويفنى وتختفى كل معالمه.. إلا من عظام نخرة قليلة أو كثيرة.

واللغويون يقولون ..أن الثرى أو ما تحت الثرى يعنى طبقات الأرض وما فيها، ومن عجيب القول كذلك أن هذا الثرى له أيضاً علاقة بخلق الإنسان كما أشار بذلك القرآن فى قوله تعالى فى سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ الآية (٧١).

والدكتور عبد الصبور شاهين يحدثنا عن معنى هذه الآية فى قوله : إن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلان به، وقد أراد أن يخبر الملائكة كتهيئة لهم حتى يتابعوا أحوال المخلوق خلال مراحل التسوية والنفخ الإلهى. (١)

كما يحدثنا كذلك عن حقيقة هذا الطين والذى من معانيه أيضاً الثرى الذى وما تحته فيقول: أما الطين أو الثرى فقد جاء فى مواضع مختلفة بهذا اللفظ والمقصود به إجمالاً: تراب+ ماء.

(١) أبى آدم.. قصة الخلق بين الأسطورة والحقيقة - د. عبد الصبور شاهين.

ويضيف : سواء فى الحقيقة أن يستخدم القرآن فى تعبيره عن أصل البشر.. الأرض أو التراب أو الطين أو الصلصال أو الحمأ المسنون فكل ذلك لا يختلف.. لأن المكونات واحدة تماماً فى التراب وأشكاله السابقة، وفى الجسد البشرى أو المادة الحية.

والملاحظ فى تفسير الآية المرتبطة بكلمة الثرى أن معظم المفسرين قد أجمعوا على أن معنى كلمة الثرى هى التراب..بصرف النظر عن كونه رطباً أو جافاً، وبذلك يصير المعنى المرتبط بنهاية الإنسان.. أن الله تعالى يملك البشر وأجسادهم حتى وهم رقوداً أو موتى، وأن تواجدهم تحت الأرض، مرهون بميعاد يوم القيامة، كما كان تواجدهم فوق سطح الأرض مرهون أيضاً بموعد أقصاه خروج الروح من الجسد.

وكل ذلك يؤدى إلى المعنى المهم فى هذا السياق وهو أن الله تعالى مالك كل شىء سواء فوق سطح الأرض أو فى باطنها، كما يملك كذلك كل الكون ومقدراته، ويظل بذلك الثرى كمكان مرهون بنهاية الإنسان مرتبطاً كذلك بكل من الأرض والتراب والحفر أو الحفرة، بل وسوف يظل كذلك إلى يوم القيامة حين تنشق الأرض عمن بداخلها من أجساد تخرج بإذن الله، عندئذ ينفض كل منا ما عليه من تراب أو ثرى انطلاقاً إلى يوم الحساب.

ولقد بين لنا ذلك ربنا تعالى فى قوله :﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ الآية (٨٧) فى سورة النمل، وفي قوله تعالى فى سورة الروم الآية (٢٥) :﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾.. وعند هذه الدعوة التى يخرج على إثرها كل جسد أقام تحت الأرض أو تحت الثرى تبدأ مرحلة جديدة فى هذا الكون كله، وقد أخبرنا بذلك أيضاً القرآن الكريم فى أكثر من آية وسورة كريمة.

** التابوت .. صندوق فيه الموتى:

من الأماكن المرتبطة كذلك بنهاية الإنسان، واختفائه من فوق سطح الأرض.. هو التابوت، أو ذلك الصندوق الخشبى أو المعدنى أو الحجرى الذى نضع فيه موتانا وصولاً بهم إلى مثواهم الأخير.

ونحن على يقين من أن فكرة هذا التابوت قد نشأت فى حياة الإنسان مؤخراً حين فكر فى وعاء يحمل بداخله أخيه الإنسان وهو فى طريقه إلى الأرض أو إلى التراب أو إلى الثرى أو الحفرة !، وكمثل أى شىء فى حياتنا فقد تطور ذلك التابوت أو هذا الصندوق.

ومن عجيب ما جاء فى كتاب الله عن هذه الوسيلة أو هذا المكان الذى يوضع فيه الجثمان قبيل أن يواريه التراب، أن الله، تعالى لم يذكره لنا مرتبطاً بنهاية الإنسان، بل ببدايته، ويبدو ذلك بوضوح فى قوله تعالى فى سورة طه الآية ٣٩ : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ وطبعاً جميعاً نعرف أن المقصود بمن فى هذا التابوت هو سيدنا موسى عليه السلام، وقصته المعروفة مع زوجة فرعون التى القى الله فى قلبها حباً خاصاً لهذا الوليد الذى سوف يكون وبالاً على زوجها.

وكلمات هذه الآية علمتنا كيف يكون لدينا مكاناً خاصاً بأجسادنا سواء أكان هذا الجسد صغيراً أم كبيراً.

وإذا كانت أم موسى قد استخدمت هذا التابوت ليحمل طفلها الرضيع فوق الماء. فنحن كذلك نستخدم هذا التابوت أو هذا الصندوق أو ما نسميه نحن حالياً «بخشبة الموتى»، من أجل أن نحمل فيه أجسادنا وهى فى طريقها إلى باطن الأرض!

وفى كتاب الله استخدام آخر لهذا التابوت أشار إليه ربنا الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية (٢٤٨) فى سورة البقرة.

وكما توصلنا إلى معناه من قبل فكذلك يؤكد لنا معجم ألفاظ القرآن الكريم أن معنى التابوت هو الصندوق، وكما أن هناك معنى لغوى لطيف لكلمة التابوت أشار إليها الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره للآية السابقة، إذ قال إن كلمة التابوت بوزن فعلوت من التوب أو الرجوع. وهى بذلك وفى تصورنا ترتبط بنهاية الإنسان أو رجوعه إلى الأرض التى خرج منها باعتبار هذا الصندوق يشبه تلك الحفرة التى سوف يلقى بها الإنسان من بعد موته.

وعلى ذلك فإن الإنسان حين يموت ويتم إعداد جسده لرحلة اللاعودة، يدخل أولاً إلى حفرة خشبية أو ما نسميه التابوت، ثم إلى الحفرة الطينية أو الترابية، وهو بذلك يُنقل من حفرة إلى أخرى حتى نهيل على جسده التراب وإلى الأبد!!، ويظل هذا التابوت هو وسيلة الانتقال الأخيرة للموتى حتى ولوحملناهم فوق أكتافنا أو فوق السيارات أو بداخلها!

وكمثل أى شىء قابل للتطور، فإن هناك ديانات أو معتقدات تجعل من هذا التابوت مقبرة داخل مقبرة، بمعنى أن أهل هذه الديانات، وخاصة من النصارى واليهود الذين يدفنون أجساد موتاهم داخل هذه التوابيت ثم يضعونها فى المقابر المغلقة !، وهم بذلك يخالفون القواعد التى تقتضى بأن يعود الجسد إلى أصله داخل باطن الأرض ويلامس التراب، بل ويتفاعل معه.

ولقد حفظ لنا ديننا الحنيف هذه السمة الطيبة، والتى علمنا إياها رب العالمين منذ جريمة قابيل مع أخيه !، وبالتالى فإن التابوت أو الصندوق بالنسبة لاتباع دين الإسلام يظل هو الوسيلة التى تساهم فى نقل الجثمان إلى مثواه الأخير، ثم يتركه بعد ذلك!!

** الأجداث .. عندما نخرج منها مسرعين:

ترتبط الأجداث فى سياق الحديث عن الأماكن المشهورة والمرتبطة بنهاية الإنسان.. بالنفخة الثانية والتى سوف يعقبها البعث والحساب، أما النفخة الأولى فهى التى سوف يتحول بعدها كل شىء فى الكون إلى موات!، وهى فى ذات الوقت تكون تعبيراً عن نهاية الحياة وقيام الساعة.

ففى اليوم المعلوم والساعة المحددة التى لا يعلمها سوى علام الغيوب بأمر الله سبحانه وتعالى إسرافيل فينفخ فى الصور النفخة الأولى، ذلك أوانها وموعدها. عندئذ يصعق ويموت كل من كانت تدب فيه الحياة فى الأرض أو على ظهرها أو فى السموات إلا من شاء الله وهم الملائكة المقربون. (١)

(١) الساعة وأشراطها - محمود مراد.

ومنذ النفخة الأولى تتوالى الأهوال والكوارث التى تقشعر لها الأبدان ويشيب من حولها الوالدان، ثم تأتى النفخة الثانية فإذا الجميع قيام لله رب العالمين.

وفى هذه المرحلة يخرج الناس من الأجداث التى مكثوا بها طويلاً!، وهناك من العلماء ومن المفسرين الذين يرون أن الأجداث ما هى إلا القبور التى حفرناها كى نوارى بها أجسادنا بعد خروج الروح منها.

ولقد لاحظنا أن هناك اتفاق بين كل المفسرين على أن الأجداث ما هى إلا القبور وإن كنت اختلف معهم فيما وصلوا إليه جميعاً، حيث نرى أن المقصود بالأجداث هنا تلك الأماكن التى دفن بها من تبقى من البشر حين وقت النفخة الأولى، ولذلك فهى تختلف عن القبور التى أخذنا نحن نحفرها أو نقيمها على مدى حياتنا فوق هذه الأرض حتى تستوعب كل من مات منا.

ولقد جاء ذكر هذه الأجداث كأماكن مشهورة فى كتاب الله وترتبط بنهاية حياة الإنسان فى ثلاث سور كريمات هى يس فى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ الآية (٥١)، وفى سورة القمر الآية (٧) في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، وكذلك فى قوله تعالى فى سورة المعارج الآية (٤٣): ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

والدليل الذى نستند إليه فى قولنا السابق عن اختلاف الأجداث عن المقابر.. أن سكان هذه الأجداث يخرجون بأمر ربهم من أجل الحساب، وهم ينضمون فى ذلك إلى إخوانهم الذين سكنوا القبور من قبلهم، وظلوا كذلك ينتظرون هذا الأمر الإلهى، وبعد الخروج الأخير يُجمع البشر فى المحشر عندما تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

ويؤكد محمود مراد أن المعنى الذى نفهمه من الآيات التى تحدثت عن المحشر أن الله تعالى يجمع على أرض هذا المحشر كل ما خلق ومن خلق فى السموات السبع

والأرض من ملك وجن وإنس وشياطين وسباع مفترسة ووحوش كاسرة وطيور جارحة وزواحف سامة وكل هؤلاء فى انكسار وخشوع.[1]

ويقول أهل اللغة: إن الأجداث مفردها جدث، أما الصور فهو القرن الذى ينفخ فيه الملك إسرافيل.. ويؤكد الدكتور طنطاوى أنه لا أحد يعلم كيفيته إلا الله تعالى.

أما فيما يخص لفظ ينسلون.. فمعناه: يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار إذ إن معنى النسلان: الإسراع فى السير.

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على ما ذهبنا إليه من أن الأجداث هى تلك القبور التى يُدفن بها ما تبقى من البشر لحظة نفخة الصور الأولى ، وهى بطبيعة الحال تختلف عن القبور التى نحفرها بأيدينا لغيرنا من الأحباء أو الأعداء.

وبناء على ذلك فإننا نؤكد كذلك أن أصحاب الأجداث هم أكثر البشر الذين فزعوا وأصابهم الهلع حين نُفخ فى الصور، وتأتيهم الصيحة العظيمة والتى تنبأ بالنهاية العظمى لكل ما فى الكون، وربما يمكثون فى أجداثهم مثل بقية سكان القبور إلى حين يأتى موعد النفخة الثانية، والتى لا يعلم مداها أو تاريخها أو استمرارها إلا رب العالمين سبحانه وتعالى.

وليس لدينا علم ولا لغيرنا عن كيفية هذا الخروج وأسبقيته، وإن كان هناك من المفسرين الذين يؤكدون أن رسولنا الكريم محمد ﷺ سيكون أول من تنشق عنه الأرض ويخرج منها يوم القيامة استناداً إلى ما جاء فى حديث شريف بشأن ذلك، كما أنه ليس لدينا علم أيضاً عمن سوف يخرج من أجداثه بعد رسولنا الكريم وهل هم الرسل أم الملائكة أم غيرهم ؟!

** المقابر والقبور.. المقر الأخير:

ونأتى لحديث المرحلة الأخيرة فى حياة بنى آدم حين يودع فى القبور .. بعدما علمنا ربنا كيف يتم دفن الموتى، وما يصاحب ذلك من إجراءات نقوم بها وفق ما

---

(١) المصدر السابق.

علمنا الله وأرشدنا إليه رسولنا الكريم، من ضرورة أن نقوم بغسل جسد الميت ولفه فى ثوب بسيط، يوارى عوراته، ثم الصلاة عليه صلاة الميت.

ولقد لاحظنا أن أكثر الأماكن المرتبطة برحيل الإنسان من حيث الحديث عنها بالتفاصيل هى القبور وذلك أكثر من غيرها مما ذكرناه من أماكن ارتبطت كذلك بيوم الرحيل.

ليس هذا فقط، بل لقد كانت كذلك من أكثر الأماكن التى ألف فيها المفسرون والمؤرخون كتبهم، حيث أطلقوا عليها ألفاظاً كثيرة ومتنوعة منها الجبانات والقرافات والمقابر.

ومن هؤلاء الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد أستاذ العمارة والآثار والذى أشار فى كتابه إلى عشرات المصادر التى تناولت كذلك حديث المقابر مع اختلاف المسميات.

ونراه فى مؤلفه المهم قد حدثنا عن المسميات المختلفة لأماكن دفن الموتى باعتبارها تجمعات جنائزية . هذه الجنائز مفردها جنازة، وجنز الشىء يجنزه جنزاً أى ستره، والجنازة بالفتح معناها الميت فوق السرير، فإذا لم يكن هناك ميت فهو سرير ونعش.

والجنازة بالكسر: تعنى الميت بسريره، وقيل: بالكسر هى السرير وبالفتح: الميت، وقيل الجنازة : هى الإنسان الميت. (١)

ليس هذا فقط، بل يقول المؤلف: إن هناك ألفاظاً كثيرة أطلقت على أماكن دفن الموتى.. منها المدافن والجبانات والترب والمقابر والقرافات، ولكل من هذه الألفاظ مدلول لغوى.

ورغم ذلك فقد شاع لفظ القرافة خاصة فى مصر من دون غيرها من البلاد الإسلامية، إضافة إلى ذلك أخذ المؤلف فى سرد هذه المدلولات اللغوية. ولما كنا نتحدث عن المقابر فقط. فسوف نقصر حديثنا اللغوى عنها من دون غيرها.

---

(١) هامش كتاب الجبانات فى العمارة الإسلامية - د. محمد حمزة إسماعيل الحداد.

ومما قاله عن المقابر: أن مفردها مقبرة وهى موضع القبر، والقبر هو مدفن الإنسان، والجمع قبور، يقبره دفنه، وأقبره أى جعل له قبراً.

وأضاف: أن المفسرين وعلماء اللغة قد اعتمدوا فيما وصلوا إليه عن لفظ المقبرة على الآية القرآنية فى سورة عبس: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ الآية (٢١)، ومعناها: فجعله ممن يُقبر، ولم يجعله ممن يلقى للكلاب ولا للطير والسباع، ولا ممن يُلقى فى النوارس لذلك فإن القبر مما أكرم به بنو آدم.

ويؤكد فى ختام حديثه: أن المدلول اللغوى لكل من المدفن والجبانة والتربة والمقبرة يتفق مع الاستخدام الجنائزى، ومن ثم يمكن أن يطلق أى لفظ منهما على أماكن التجمعات الجنائزية بصيغة الجمع.(١)

وحين نعود للوقوف بين يدى الله وكتابه العزيز لنعرف موقع هذا المكان المرتبط بنهاية حياة الإنسان فوق الأرض نكتشف أنه جاء فى القرآن الكريم على ثلاثة أشكال لفظية وهى القبر والقبور والمقابر، ففى سورة التوبة الآية (٨٤) قال ربنا تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾، وفى سورة الحج الآية (٧) قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

وقد تكرر هذا اللفظ فى سورة فاطر الآية (٢٢) والممتحنة الآية (١٣) والانفطار الآية (٤) والعاديات الآية (٩) والتكاثر الآية (٢). إذن يبدو لنا من ذلك أن القرآن الكريم قد ذكر لفظ القبر فى سورة واحدة وآية واحدة فقط، أما لفظ القبور فقد جاء ذكره فى خمس سور وخمس آيات.. فى حين جاء ذكر لفظ المقابر فى سورة واحدة وآية واحدة فى سورة التكاثر.

أما من حيث المعنى اللغوى فقد أخبرنا أصحاب المعجم الوجيز أن قبر الميت: قبراً: دفنه، وأقبر فلاناً: جعل له قبراً.

والقبر أيضاً المكان يدفن فيه الميت وجمعه قبور، وهناك من المفسرين ومن العلماء

(١) المصدر السابق.

الذين تحدثوا عن المقابر والقبور وارتباطهما بنهاية حياة الإنسان، ومن هؤلاء الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى الذى أكد أن حياة القبر تأتى بعد ساعة الإحتضار ثم تنتهى هذه المرحلة بالبعث.

ويضيف: أننا حين ندقق النظر لأدركنا أن هذه المرحلة أو هذه الفترة وجيزة ولا تقاس بما يتبعها من حياة ما بعد النشور.

معنى ذلك أن الإنسان فى القبر مجرد زائر وليس مقيماً دائماً، وما دام زائراً وليس مقيماً، فإن الزيارة مهما طالت سيأتى لها وقت وتزول، وهى زيارة ستنتهى بيوم الحشر. (١)

ومن هولاء أيضاً الدكتور أحمد شوقى إبراهيم الذى أكد فيما كتبه: أن بعض الناس يزورون القبورلاعتقاد لديهم بأن الموتى قد سكنوا تلك القبور وأقاموا فيها حتى يوم القيامة بعد ملايين السنين، وهذا فى رأينا ليس صحيحاً، فالذى فى القبور تراب أجساد الموتى فقط، أما هم أنفسهم فقد عادوا إلى ربهم، إما فى جنة وإما فى نار، ولكن كيف ذلك ويوم القيامة والحساب لم يأت بعد؟

نقول أن كلمة "لم يأت بعد" تدل على أن وقتها لم يحن بعد، وأن زمانها لا يزال بعيداً، وهذا غير صحيح، فالآخرة لا زمن فيها، ولو كان الزمن يجرى فيها ما كان لحياة الآخرة خلود، وما كانت حياة حقة، بل كانت الحياة الدنيا يعيش الإنسان فيها لحظات تجرى به ويجرى بها.

وأضاف : أن يوم القيامة لم يأت بعد، أو أن يوم القيامة سيكون بعد ملايين السنين، كل هذا ليس صحيحاً، لأنه لا زمن فى الحياة الآخرة.

ويؤكد فى السياق نفسه: أن الإنسان لا يرقد فى القبر ويوارى الثرى، وإنما يحدث ذلك لجسمه المادى فقط أما هو فينطلق راجعاً إلى رب العالمين. (٢)

---

(١) الحياة والموت- ممصدر سابق.

(٢) فتح العليم فى تفسير القرآن الكريم - مصدر سابق.

** المرقد: مكان آخر فى رحلة النهاية:

ما زالنا فى رحاب الحديث عن الأماكن التى تشهد دوماً رحيل الإنسان وانتقاله إليها، انتظاراً للبعث، والحديث هذه المرة يقترب كثيراً من أحد هذه الأماكن المشهورة ألا وهو المرقد .. الذى هو فى تصورنا يختلف كثيراً فى توصيفه عن غيره من الأماكن التى تحدثنا عنها من قبل وارتبطت كذلك بنهاية الإنسان، ذلك لأن المرقد يعنى وفق هذا التصور الخاص كل مكان ذاب فيه جسد الإنسان وتحول إلى لا شىء، فقد يكون هذا المرقد تحت سطح الماء أو فوق الجبال أو داخل الصحراء وبالتالى فليس شرطاً أن يكون المرقد قبراً أو مقبرة نقيمها لدفن موتانا.

واختلاف آخر يؤكد ما ذهبنا إليه وهو أن هذا المرقد قد ارتبط فى القرآن الكريم بالكافرين فقط من الذين حين خرجوا منه ليوم الحساب ظلوا يتساءلون عمن أخرجهم من مرقدهم هذا، ولقد ظنوا وأباؤهم بأنهم لن يُبعثوا مرة أخرى، وبالتالى لن يخرجوا من مراقدهم التى احتوت أجسادهم بعد خروج الروح من هذه الأجساد.

ومن عجيب ما جاء بشأن المراقد كأماكن مشهورة فى كتاب الله ولها ارتباط بنهاية الإنسان، أن هناك آية واحدة فقط هى التى حدثتنا عن تلك المراقد.

ولسوف نلاحظ ارتباطها كذلك بالمشركين والكافرين الذين ظنوا أن لن يبعثوا مرة أخرى.

ففى سورة يس الآية (٥٢) يقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وقد جاءت هذه الآية فى سياق حديث القرآن الكريم عن المشركين الذين ينكرون قيام الساعة ويستبعدون حدوثها.

وجاء القرآن الكريم ليؤكد لهم عدم صحة زعمهم هذا واعتقادهم المريض، مؤكدا فى السياق نفسه على أن ما وقع لهم جاء بناء على وعد الرحمن وتصديق الرسل.

ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوى أنه ربما الملائكة أو المؤمنين هم الذين قاموا بالرد على هؤلاء الكافرين الذين تساءلوا عمن أخرجهم من مراقدهم؟! أو ربما

يكون لكلام الكفرة فى رد بعضهم على بعض على سبيل الحسرة واليأس.. أما ابن كثير فيقول فى تفسيره لهذه الآية: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ يعنون قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدنيا أنهم لن يبعثوا منها، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد.

أمام الطبرى فقد فسر لنا المرقد بمعنى المنام !، وقال فى تفسيره لهذه الآية: قال المشركون: يا ويلنا من أيقظنا من منامنا، وتفسير الجلالين قد أشار أيضاً إلى أن المرقد ما هو إلا المنام.ويبدو ذلك فى قول صاحب الجلالين: وقالوا أى الكفار منهم «يا» للتنبيه.. «ويلنا» هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه. «من بعثنا من مرقدنا» لأنهم كانوا بين النفختين نائمين ولم يعذبوا.

ويبدو أن هؤلاء المفسرين قد ركنوا فى تفسيرهم لكلمة مرقدنا إلى أصل الكلمة والمرتبطة بالرقود.. أى الجلوس أو النوم.. من فعل رقد يرقد.

ولكن وبطبيعة الحال هذا ظاهر المعنى، أما ما يقصده ربنا تعالى وفق ما توصلنا إليه هو قبور بعينها وقد دفن بها الكافرون أو ماتوا ودخلوا إلى باطن الأرض بدون أن يدفنوا، المهم أنهم ليسوا فى مقابر خاصة بهم أو بأهليهم.

والتاريخ قد حكى لنا قصة المقبرة الجماعية لكفار قريش من الذين ماتوا وقتلوا فى معركة بدر الكبرى، وقد جمع أهليهم أشلاءهم الممزقة ودفنوها فى مقبرة جماعية.

هؤلاء بعينهم وغيرهم من الكافرين من قريش ومن غيرهم من كفارأيامنا هذه، ومن سيموت على غير دين الإسلام فيما بعد، سوف يفاجئون بيوم البعث والحساب، وعندما يبعثهم الله يأخذون فى التساؤل عمن بعثهم من مرقدهم!!

ولسوف ترد عليهم الملائكة والمؤمنون بأن ذلك وعد الله، وما أنبأهم به المرسلون من قبل، ولكنهم هم كذبوه، وبالتالى بات مصيرهم معروفاً حيث يسحبون إلى جهنم زمراً، بعد ما تخلصت منهم مراقدهم التى مكثوا بها طويلاً.

هذه المراقد التى ظلت على مدى سنوات طويلة تئن من وجودهم بداخلها، لأنها

تعلم ما قدمته أيديهم من أعمال وما لصق بأذهانهم وبقلوبهم من معتقدات أدت بهم إلى الكفر بالله وبوحدانيته، مما حاد بهم عن الطريق المستقيم، وجعل نهايتهم فى نار جهنم وبئس المصير.

** البرزخ..قبل الموت وبعد الموت:

حين رجعنا إلى كتاب الله العزيز لنتعرف من خلال آياته الكريمة وسوره الشريفة على الأماكن المشهورة خاصة التى ترتبط بأصحاب القبور فى هذا الكتاب العظيم استوقفتنا كلمة البرزخ كمكان، عرفنا له معنيين الأول فى الحياة الدنيا والثانى من بعد الموت!!، وبالتالى عرفنا ارتباطه كذلك بقصتين إحداهما فى الدنيا والأخرى من بعد الوفاة.

ولكى نوضح ذلك أكثر تعالوا نستعوض سوياً ما جاء بشأن هذه الكلمة فى القرآن الكريم باعتبارها مكاناً مشهوراً فى كتاب الله العزيز. أما فيما يخص ما بعد الموت فقد أخبرنا القاموس بأن كلمة برزخ تعنى ما بين الحياة والموت وفق ما جاء فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الآية (١٠٠) أما فيما يخص شأنها بالنسبة للدنيا فقد أخبرنا نفس القاموس بأن البرزخ معناه حاجز بين شيئين، وجاء ذكره بهذا المعنى فى سورتين الأولى سورة الرحمن وفى قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ الآية (٢٠) من نفس السورة الكريمة، وفى قوله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الآية (٥٣).

ولقد حدثنا إمام الدعاة محمد متولى الشعراوى عن معنى البرزخ كمكان مشهور فى كتاب الله فيما يخص ارتباطه بمرحلة ما بعد الموت فقال عن ذلك: إن البرزخ هو ذلك الفاصل بين الأحياء والأموات، بحيث لا يمكن لإنسان مات أن يعود إلى الحياة الدنيا مرة أخرى.. حتى أن الشهداء عندما رأوا ما أعده الله لهم من النعيم العظيم طلبوا منه تعالى أن يعودوا إلى الحياة ليخبروا إخوانهم بما رأوا، فقال لهم سبحانه: لقد كتبت عليكم أن من يخرج منها لا يعود إليها، وأخذ سبحانه على نفسه مهمة

إبلاغ المؤمنين بفضل الشهادة ومنزلة الشهداء. [1]

ليس هذا فقط، بل لقد تحدث مولانا الإمام عن حياة البرزخ هذه والمعنى بها حياة القبور إذ ما جاز هذا التعبير مؤكداً على أنه فى داخل هذا البرزخ تختلف القوانين لأنه لا زمن يترك بصماته على الناس لأنهم يعيشون خارج هذا الزمن، وهو يتساءل فى سياق هذا الحديث. وهل يوجد عذاب لأصحاب القبور أو الموجودون فى البرزخ، والجواب. أنه لا عذاب إلا بعد الحساب، وإن كان الإنسان وهو فى قبره أو برزخه يرى مقعده من النار ومقعده من الجنة!! [2]

أما فيما يخص حديث برزخ الدنيا والذى عرفه القاموس بأنه حاجز بين شيئين.. فإننا نؤكد هنا أن هذا الحاجز من إعجاز الخالق سبحانه وتعالى، وذلك لأننا شاهدناه وعرفناه حتى فى بلادنا.. هذه الأماكن التى تختلط فيها مياه البحر المالح بمياه النهر العذب، وأنت تستطيع أن تفرق بينهما فى لحظات رغم أنك قد تظن أنهما سوف يختلطان.

هذا الحاجز إنما هو حاجز وهمى لا نراه، ولكننا نشاهد آثاره. وقد يكون معنى البرزخ هنا أيضاً السد الترابى الذى خلقه رب العالمين كى يكون بالفعل حاجزاً قوياً بين هذين البحرين.. أو بين البحر والنهر.

وربما يتطرق الحديث عن هذا البرزخ إلى ما نسميه الآن باسم الجزر الموجودة داخل الأنهار أو داخل البحار، هذه الجزر التى تعتبر من أعظم الحواجز التى خلقها رب العالمين، ليس لحجز المياه وحتى لا تختلط ببعضها ، بل هو حاجز ترابى أو صخرى من أجل حماية الشواطئ والناس من الذين يعيشون فوقها من خطر الغرق!!

هذا البرزخ نراه أيضاً قد لعب دوراً مهماً فى إنشاء الموانى والمصدات وقرى الصيد وكل السواحل التى نشاهدها أمامنا سواء فوق الخرائط أو فى أرض الواقع،

(١) الحياة والموت - محمد متولى الشعراوى.

(٢) المصدر السابق.

وهو كذلك سوف يكون أحد مؤشرات خراب هذه الدنيا وقرب نهايتها، وذلك حين يذوب هذا البرزخ وبالتالى تختلط المياة المالحة بالعذبة وترتفع المياة فوق اليابس فيحدث ذلك الغرق، ويعود الطوفان، وتلك هى النهاية التى ربما قدرها رب العالمين لهذا الكوكب الذى نعيش فوقه، بل ونهاية لكل الكون المحيط بنا.

** الأعراف.. ما بين الجنة والنار:

ونتوقف أخيراً أمام أو خلف أخر الأماكن المرتبطة برحيل بنى آدم من قبل البعث والحساب، وهو ما أخبرنا به ربنا تعالى فى كتابه العزيز وما سمى بالأعراف.

هذا المكان الذى ينتظر فيه صنف من البشر من الذين تساوت أعمالهم بين الخير والشر، وأصبحوا فى حيرة من أمرهم - مع تساؤلهم الدائم: أهم من أصحاب الجنة أم من أصحاب النار؟؟.

والأعراف وفق ما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم معناها: الحاجز بين الجنة والنار. وهناك من المفسرين الذين قالوا إن هذا الحاجز هو بعينه السد بين الجنة والنار والذى يقف خلفه الناس انتظاراً لمعرفة مصيرهم.

ولقد أخبرنا ربنا تعالى عن الأعراف فى قوله تعالى: ﴿وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم﴾ الآية (٤٦) فى سورة الأعراف، وفى قوله تعالى أيضاً: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ الآية (٤٨) فى سورة الأعراف أيضاً.

وهناك كلام كثير ومتنوع ومختلف لدى العلماء والمفسرين عن الأعراف وموضعه وأهميته. فالإمام النسفى يقول فى تفسيره لهذه الآية: أنه يوجد بين الجنة والنار أو بين الفريقين بالدار الآخرة حجاب وهو السور المذكور فى قوله تعالى: «فضرب بينهم بسور» وعلى الأعراف: أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهى أعاليه، وجمع عُرف أعراف، وقد أستُعير من عرف الفرس وعرف الديك، رجال من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولاً إلى الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم أو من لم يرض عنه أحد أبويه.

إذن الأعراف وفق هذا الرأى: هو ذلك المكان الذى يقيم فيه الإنسان من بعد رحيله بجسده منتظراً يوم الحساب ونزول رحمة الله تعالى التى سوف تدركه من أجل أن يدخل الجنة ولا يدخل النار.

أما الإمام الطبرى فى تفسيره فيقول: إن بين الجنة والنار حجاب أى حاجز وسور، هذا السور هو المذكور فى قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنة فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو المسمى بالأعراف، لأنه مرتفع عن الأرض كعرف الديك.

وفى هذه الأعراف يوجد رجال يعرفون أهل الجنة. وقيل إن هؤلاء الرجال من الملائكة، والصحيح أنهم من البشر، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا على السور حتى يقضى الله بينهم، هؤلاء الرجال يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم مثل بياض وجوههم، وأهل النار بسواد الوجوه.

ليس هذا فقط، بل لقد صور لنا ربنا الكريم حالة أصحاب الأعراف الذين يرون أصحاب الجنة وأصحاب النار وهم يتوقون لأن يكونوا من أصحاب هذه الجنة لما يرون فيها من نعيم مقيم. ويخشون من النار لما يرون فيها من عذاب مقيم، وهم بين الحين والحين يلتفتون إلى هؤلاء وأولئك، بل وكثيراً ما ينادون عليهم وفق ما أخبرنا به كتاب الله العزيز، الذى صور لنا هذا المشهد تصويراً رائعاً وعظيماً.. فقال الله تعالى «ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم» أى سلمتم من عقاب الله الأليم وهم لم يدخلوا الجنة بعد وفق قوله تعالى: «لم يدخلوها وهم يطمعون» أى وهم يطمعون فى دخولها.

وفى المقابل: «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار». إذا ما نظروا إلى أهل النار وعرفوهم..«قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الطاغين» أى لا تجعلنا مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا دخول النار.

بل وأكثر من ذلك فإن أصحاب الأعراف ينادون بعض الرجال الذين يعرفونهم من أشكالهم وهم فى نار جهنم ويقولون لهم ماذا نفعكم ما كنتم تجمعونه من أموال

فى الدنيا وما كنتم ترتكبونه من معاصٍ وذنوب.[1]

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق: وهل أصحاب الأعراف هم أحسن حَظاً من غيرهم سواء من أصحاب الجنة أم النار؟! إننا نقول لا.. والله فإن حالهم صعب للغاية، إذ هم يتقلبون فى أمانيهم بين جنة ونار. لأنهم يرون أصحاب كل منهما، وهم فى قرارة أنفسهم يتمنون نعيم جنات الله تعالى.. بعدما يتدخل ربنا برحمته وعظمته ويمن عليهم ويأمر بأن يدخلوا الجنة مع أصحابها أو مع أصحابهم الذين كانوا يرونهم من قبل وهم فى الأعراف محتجزون.

(١) مختصر تفسير الطبرى - المجلد الأول.